بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا , من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده و رسوله ﷺ تسليماً كثيرا .

أما بعد : قال معالي الشيخ صالح آل شيخ حفظه الله تعالى[1] : ... وسورة (الكهف) سورة عظيمة من سور القرآن التي لقراءتها كل جمعة معان كبيرة ومقاصد عظيمة، ومن المقرر عند أهل التخصص في التفسير من أهل العلم أن سور القرآن العظيم لها مقاصد، يعني: لها موضوع أو موضوعات رئيسة تدور عليها الآيات ويتصل بعض الآيات برقاب بعض في إفهام المعنى والمقصد الذي أراده الله ﷻ من هذه السورة، فقد ذكر أهل العلم كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً أن سورة (البقرة) في حفظ الضروريات الخمس، وأن سورة (المائدة) في العقود، وهكذا في موضوعات شتى، وقد بالغ بعض أهل العلم حتى استنتج من كل سورة مقصد وغاية، فما بين مستقل ومستكثر، فبعضها يظهر المقصد أو المقاصد من السورة وآياتها، وبعضها لا يظهر إلا لذوي التحقيق من أهل العلم.

سورة (الكهف) ، قال الله ﷻ في أولها : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾ [الكهف:٧، ٨]، والذي يظهر للمتأمل من أهل العلم بأن موضوع هذه السورة هو في الابتلاء، حياة الإنسان كلها ابتلاء، ولكن في هذه السورة ذكر الله ﷻ هذا المعنى فيما أورده من قصص وأخبار، فبدأها الله ﷻ بحمده، والثناء عليه ،فقال سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا ﴾[الكهف:١، ٢]، فحمد الله ﷻ نفسه، يعني أثنى على نفسه بأنواع الثناء، والحمد هو: الثناء بأنواع المحامد والصفات ...

أما أولها فقصة أصحاب الكهف : قصة أصحاب الكهف قال الله ﷻ في شأنهم : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ ﴾[الكهف:٩، ١٠]، فتية آمنوا بربهم، قال الله ﷻ :﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣].

(١) من تفريغ محاضرة بعنوان : (مقاصد ومعاني سورة الكهف).

حققوا الإيمان من قلوبهم فزادهم الله هدى ،كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧ ﴾[محمد ١٧]، فالله ﷻ إذا أقبل عليه العبد شبرًا أقبل عليه الله ﷻ ذراعا، كما ثبت في الحديث الصحيح في الصحيحين وغيرهما : « إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا..»[1] إلى آخر الحديث أصحاب الكهف فتية تيقنوا التوحيد، وتيقنوا أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده، في قومهم رأوا ما يخالف ذلك فآمنوا بالله وحده، فحاصرهم قومهم حتى أدى بهم الأمر إلى أن يحفظوا دينهم بالهجرة، فهاجروا إلى أن كتب الله لهم أن يكونوا في الكهف، فألقى عليهم النوم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

ما الابتلاء في قصتهم ؟ عدة ابتلاءات –والابتلاء الموجود في قصتهم يتكرر مع كل واحد منا في حياته– :

– الابتلاء الأول: أن الناس ليسو عبرة في الكثرة والقلة في معرفة الحق، الحق يُعرف من دليله وبرهانه : فقد يكون الناس على حق كثير، مثلما كان في عهد النبوة، والخلافة الراشدة، وفي صدر الإسلام، والقرون المفضلة، فقد كان الأكثر على حق، فلم تفشُ فيهم الضلالات والفرق، فكان الحق بدليله موجود، وقد يكون الناس على غير الحق وإن كانوا كثيرين وإن كانوا جماهير؛ لهذا قال ﷻ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[النحل:١٢٠]، على الرغم من أنه واحد،[2] قال الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، في تفسيره لهذه الآية : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ؛ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ،﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ لا للملوك، ولالتجار المترفين،﴿ حَنِيفًا ﴾ : لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين،﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾خلافا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين[3] .. معك أمة، إبراهيم أمة، والأنبياء أمة، وكل نبي أمة، ومن معهم من أهل الدين والتوحيد والحق والهدى أمة.

فأصحاب الكهف ابتلوا بمواجهة الكثرة، وكان معهم يقين بدليله وبرهانه أنهم على حق، فاختاروا الحق بدليله وبرهانه.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦).

(٢) انظر في تفسير الآية : جامع الرسائل لشيخ الإسلام(٥/١)، ومفتاح دار السعادة لابن القيم (١٧٤/١).

(٣) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب –كتاب فضائل القرآن والتفسير–(١٨١/٢).

يغلط بعض الناس في القلة والكثرة :

– بعضهم يرى أن الكثرة دائما صواب، و القلة دائما غلط على خلاف الحق .

– وبعضهم يرى العكس، يرى أن القلة دائما المبتلاة في دينها على حق، وأن الكثرة على غلط، فأي قلة مبتلاة في دينها على صواب، وأي كثرة معاندة لهم أو مضادة لهم تكون على غلط.

وهذا غير صواب، الصواب أن القلة والكثرة ليست ميزانا، ابتلى الله الناس بالقلة والكثرة، فمنهم من وقع فريسة الكثرة والجماهير، ومنهم من وقع فريسة القلة، قال: نحن قلة على حق، وهذا ليس صوابا، وذاك ليس صواب، بل الصواب أن الحق يُعرف بدليله، ببرهانه، بمنهجه، بطريقته، وليس اعتبارا بأنهم كثير أو بإنهم قليل، أتى في أزمنة الله ﷻ كثرة على الحق، وقلة على الباطل، في زمن الصحابة ﭫ الخوارج كانوا قلة وكانوا هم الباطل، والصحابة ﭫ كانوا الكثرة وكانوا هم الحق، يأتي في زمن يكون العكس، قال ﷺ :« بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ »[1] .

فإذًا الابتلاء الأول أن لا تضع في ميزانك للصواب كثرة الجماهير أو قلتها، الدليل ما هو، الحق ما هو، منهاج النبوة ما هو ، منهاج الصحابة ما هو، منهاج الأئمة الصالحية ما هو، منهاج العلماء ما هو، المنهاج الذي عليه الأكثر، ولنفرض: واحد منتسب لأهل العلم قال كلامًا يخالف إخوانه من أهل العلم، العالم يزل، ما جعل الله العصمة إلا لأنبيائه، ولكن أتباع الأنبياء يحصل منهم ويحصل، والعالم إذا زل في الأمور العظام المتعلقة بالأمة يزل معه العالم، ولذلك قال أهل العلم في القواعد: (زلة العَالِم زلة العَالَم) ومن هنا يظهر لك نوع الابتلاء، أصحاب الكهف نجوا من ذلك فأثنى الله عليهم، دخلوا في الكهف، فابتلاهم الله ﷻ بقومهم، فهربوا من قومهم وأووا إلى الكهف، قالوا : ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦ ﴾[الكهف:١٦]، قضى الله عليهم أنهم ينامون هذه النومة الطويلة ، ثم أيقظهم الله ﷻ ابتلاء لمن ؟ ابتلاء لهم، وابتلاء لقومهم مرة أخرى، قال الله ﷻ في وصف ذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ فقوله:﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ هذا ربط للأمر بموضوع السورة ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).

فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ فلا يزالون يتذكرون الخوف الأول، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[الكهف:١٩، ٢٠]، بعد الثلاثمائة وتسع سنين من النوم لا زال في ذهنهم الأمر الأول وهو أنهم مبتلين، وأنهم في ابتلاء عظيم مع هؤلاء القوم، قال الله ﷻ مرة أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني : أعثر الله قوم أصحاب الكهف بأصحاب الكهف ، يعني : أرشدهم إليهم ، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ، فحتى العثور عليهم فيه ابتلاء هل تؤمنون بالآخرة أم لا تؤمنون؟ ،﴿لِيَعْلَمُوا﴾ اللام هنا يسميها العلماء : لام التعليل، يعني : لماذا أعثر عليهم؟﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾جاء الابتلاء هنا، هل لمّا هؤلاء القوم المشركون رأوا ما أكرم الله به هؤلاء الفتية، وهم كانوا كم ؟ أكثر شيء سبعة وثامنهم كلبهم، هؤلاء الفتية هل استفادوا منهم وقالوا: لننظر ما كانوا عليه، ماذا كانوا يؤمنون به؟ لا، حتى في هذه فشلوا في الابتلاء ، قال الله ﷻ : ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، يعني: ما زالوا مشككين ، ثلاثمائة وتسع سنين، وقد رأوا معهم عملة هذه العملة لو عرضوها على أهل الخبرة لقالوا: هذه من ثلاثمائة سنة، لقالوا: هؤلاء أناس شباب ولتذكروا ان هناك أناس شباب هربوا من المدينة وفقدوا إلى آخره، ولتذكروا، إذًا هؤلاء حالة استثنائية، إذًا ما تتذكرون لم هربوا من قومهم؟ ما كانوا عليه من الدين، وما كانوا عليه من الهدى، وأن الله أكرمهم بهذه النومة العظيمة في هذه السنين ليبتليكم أنتم ؟ ما استفادوا، ففشلوا في الابتلاء ، فجاءهم الشيطان بحيلة ، لا تؤمنون بما آمنوا به ولكن كرموهم،أعطوهم كرامة، ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾،يعني:لا ندري عنهم ولكن ربهم أعلم بهم،ولكن أهل النفوذ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[الكهف:٢١] من هم الذين غلبوا على أمرهم ؟ هناك ثلاثة أقوال لأهل العلم فيها[1] والظاهر منها أنهم أهل النفوذ والقرار في وقتهم، قالوا: هؤلاء نستفيد منهم سياسيا، نستفيد منهم في وقتنا ، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ يعني : أهل النفوذ والكبراء وأهل القرار﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ، يعني : نبني عليهم مسجدًا ، حتى يعرف الناس أننا غير مضادين لهم ، بل أكرمناهم وبنينا عليهم

(١) انظر : تفسير الطبري (١٥/٢١٦) ، وابن كثير (٥/١٤٧).

مسجدا، فالعبرة في الحق ماذا كان عليه هؤلاء الفتية ؟ ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[الكهف:١٤، ١٥] ، يعني : أنتم أيها القوم على شرك فلماذا لم تتذكروا أن هؤلاء الفتية أهل توحيد وعبادة لله وحده ، فتتبعونهم فيما اهتدوا به ؟ أما كونكم تقيمون عليهم مسجدا فهذا أيضًا فشل في الابتلاء ؛ ولذلك من أدلة أهل العلم على عدم جواز بناء المساجد على القبور هذه الآية ؛ لأن الله ذمهم بقوله : ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إلى أن قال : ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ هذا أول نوع من الابتلاء.

الابتلاء الثاني: ذكر الله ﷻ العدد، قال:﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢] ، قال ابن عباس ﷺ : « أَنَا مِنْ أُولَئِكَ الْقَلِيلِ الَّذِينَ اسْتَثْنَى اللهُ، كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » [انظر:تفسيرالطبري(١٥/٢١٩)،والبغوي(٢/١٨٦)،وابن كثير(٥/١٤٨)] ،وأيد قول ابن عباس جماعة من أهل العلم ؛ لأنه قال : ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾،وأما في السبعة قال:﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، هنا فيه ابتلاء ، هذه الآية ما صلتها بالابتلاء ؟ الصلة عظيمة، وهي: الابتلاء بالمعلومات، الابتلاء بالجدل، الابتلاء بقال وقيل، هذا لا فائدة منه، الفائدة فيما فيه حجة، أما ما لا حجة فيه فتُبتلى فيه في الحياة ؛ ولذلك قال الله ﷻ لنبيه ﷺ ناهيًا نبيه ﷺ أن يخوض في ذلك : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾؛ لأنه لا حجة في أيّ من ذلك، لم تحضرهم، لهم قرون قد انقرضوا، فأي حجة في أن عددهم كان كذا أو كذا ؟ هذا واحد، الثاني أي فائدة من العدد ؟

قال الله ﷻ : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨] ...

* * *